

الفصل الثالث عشر

م شروع برنامج

الحكم في نجاح هذا العمل من فشله ليس من شأن القائمين به بل من شأن القراء ومن شأن الشعب وقادة الرأي فيه ، وأما القائمون به فمن شأنهم فقط أن يسيروا به ، ويتجنبوا الأخطاء التي وقعوا فيها ، ويجتهدوا في خدمتهم لأطفال الشعب ، وفي تنويع برنامج النشاط بحيث يصبح يضم كل ما يحتاجه الأطفال من عناية صحية وأخلاقية واجتماعية واقتصادية . وعليهم أن يهيئوا دراسة البرامج بين الحين والحين حتى لا يدرجوا على شيء فيصبحون يمارسونه لا بحكم ما يعود منه من الفائدة ، بل بحكم العادة وبحكم سلوك السبيل المعبد الممهدة .

وفي حالة ما إذا أخذ الشعب والوا الحكم فيه بهذا المنهج في خدمة أطفال الشعب ، في حالة ما إذا اقتنع هؤلاء وأولئك بأن هذا ما يجب أن يعمل في سبيل هؤلاء الأطفال ، يرى الكاتب لزاما عليه أن يضع مشروعا تماما لهذا العمل ، مشروعا يخدم أطفال الشعب كلهم ، حتى إذا أخذ بهذا المنهج تكون الطريق واضحة المعالم ، ويكون هنالك أساس يسير عليه من يريد أن يسير بهد التغيير والتبديل الذي يروق للقائمين بالعمل .

والكاتب يبنى مشروعه على ما صر به من اختبار في مثل هذا العمل ، فهو يعمل فيه باستمرار منذ عام ١٩٣٨ إلى يومنا هذا وقد يستمر يعمل فيه بضع سنين أخرى ، وهو لذلك يخال أنه قد خبر الصبيان والخدمات بينهم وعرف عنهم شيئا لا بأس به قد يصبح أن يصبح أساسا للعمل بينهم ويخيل إليه أيضا أنه لا يرمى بالادعاء والغرور إن هو اجترأ على وضع نظام من هذا القبيل لخدمة الصبيان في البلاد . وعلى كل حال يجازف الكاتب بهذا

حتى إذا خطر البلاد أن تجرب هذا النوع من الخدمة يكون أمامها مشروعاً
 إن لم يصلح للتطبيق في الحال قد يصلح أساساً للتفكير وابتداع المشروعات .
 وهنالك الكاتب إلا أن يذكر القاريء بأن التجارب التي أجريت
 على أطفال الشعب أجريت في القاهرة وأجريت على عدد معين من
 الصبيان وفي حيين أو ثلاثة ، وأن هذا الكتاب قد وضع على أساس هذه
 التجربة فهل يصلح هذا الأساس لجميع أطفال الشعب في جميع الأحياء وفي
 جميع المدن على السواء؟ وهل يصلح مثل هذا النظام لأطفال الفلاحين أيضاً؟
 هل إذا عم البلاد كلها يفيد الأطفال منه الفائدة المرجوة؟ هذا شيء يترك
 للقراء أيضاً فهم الذين يستطيعون الحكم دون تحيز أو دون انحراف عن
 جادة الصواب بفعل مؤثر من المؤثرات .

وإنما يزعم الكاتب أن التجربة لم تهمل على أساس الأحياء أو المدن أو
 الأرياف ، فهذه أشياء محدودة وأمكنة لها حدود معلومة لا تتعداها ،
 والحكم عليها لا يسحب على غيرها في جميع الحالات ، فاسميط غير قنا وبنها
 غير أسوان ، ولكل منها حكمه الخاص وحالته التي قد يتفرد بها ، وإنما
 يخيل للكاتب أنه بنى حكمه على شيء أعم من الأمكنة والأحياء والمدن ،
 يخيل إليه أنه بناه على الطبيعة الانسانية ، على طبيعة الصبيان ، وهذه
 واحدة لا تتغير في مجموعها وإن كانت تتغير في تفاصيلها ، فما يحتاج إليه
 الصبي في الدنيا يحتاج إليه أخوه في المنصورة وهو العناية والرعاية الصحية
 والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ، ولا يكون التفاوت بينهما في نوع
 الخدمة وإنما في درجتها تبعاً لدرجة الصبي ومكانته من الحاجة ، ففقد
 يحتاج بعضهم إلى عناية أكبر في بعض النواحي دون النواحي الأخرى .

وعلى كل حال يزعم الكاتب أن يبنى مشروعه على أساس نادي
 كوبري الليمون لأطفال الشعب وعلى أساس اختباراتهِ ومشاهداته في
 هذا المعهد ، وعلى أساس ما وجد أنه يصلح للصبيان فيه ، وعلى أساس أن

ما قد يصلح للصبيان فيه قد يصلح للصبيان في كل مكان في البلاد مع تغيير قليل أو كثير تبعاً للأقاليم أو البيئة التي توجد فيها كل من هذه المعاهد . ولكي يسهل علينا تناول الموضوع نزمع أن نتكلم أولاً عن معهد واحد منها ، ماذا يحتاج هذا المعهد ؟

يصحح أن نجعل كل وحدة منها الخمسة صبي وذلك لأن المصاريف اللازمة للإدارة والألعاب والنشاط قد تتساوى لتسعين صبياً ولثلاثمائة مع فروق بسيطة قد لا يؤثر لها ، فهناك حد اقتصادي لهذه المنشآت كما أن هناك حداً اقتصادياً لكل عمل عنده يفقد التناسب بين الفائدة ورأس المال . تحتاج الوحدة إلى ألف وخمسمائة إلى ألفين متر مربع من الأرض المضمنا ، تسور حتى يضبط الدخول والخروج والنشاط من أوله إلى آخره ، وهذا شرط مهم من شروط التربية أن يستطيع المرء حصر البيئة وتحديد العوامل فيها ، ويقام على الأرض بناء يتناسب والحلي أو القرية أو المدينة التي توجد بها الوحدة . ولا يهم نوع البناء فقد يصلح الطوب النيء في الأرياف ، وقد يصلح ما هو أدنى من ذلك وقد يصلح في المدن البناء بالحجارة العادية التي يستعملها فقراء الشعب .

وعلى كل حال يجب أن تكون دورة المياه مستوفاة ، غزيرة المياه ، واسعة ، كافية للاستحمام الذي سيكثر بحيث يقبل جميع الصبيان عليه ، فإن لم تكن صبيانياً معدة لهذا الاستعمال الكثير لا تستطيع أن تتحمل كل هذا الضغط عليها ، ويكون بالبناء بضعة حجرات للنشاط والاجتماع ونظن أن حجرة لكل مائة صبي تكفي الغرض المطلوب ، أما الملاعب فشانها هسين وتكاليفها لا يعتمد بها .

وللوحدة خادم للحراسة والتنظيف والاعتناء بها والمساعدة في ضبط دخول الناس فيها ، إذ لا يصحح أن كل طفل يدخل إلى الوحدة متى أراد ، فالوحدة لأعضائها دون غيرهم ، ثم إن لكل مائة صبي رائد — افندي متعلم

يهتمه أمر الأطفال ويعرف ما يحتاجون إليه وله من وحدة الذهن ومضاء الغزوة ما يعينه على سد حاجات الأطفال . وترتب له دراسة خاصة حتى يصبح صالحاً لمثل هذا العمل ، وعلى هذا فقد تحتاج الوحدة الى ستة رواد ، لا يتقطعون للعمل فيها ، وإنما يعملون في أوقات فراغهم من عملهم في المكاتب والدواوين .

وتصلح الوحدة لأغراض متعددة غير خدمة الصبيان أن أراد القائمون بها ذلك ، يستطيعون استعمالها صباحاً لبنات الحبي ، يقوم على شؤونهن طائفة من الآنسات والسيدات ، ويمكن استعمالها منتدى لرجال الحبي بعد فراغ الصبيان من نشاطهم ليلاً ، ويمكن أن تستعملها وزارة الصحة مركزاً للعلاج والكشف الطبي على الناس وخدمتهم في الوقت الذي لا يستعملها فيه هؤلاء أو أولئك من البنات والصبيان والرجال ، وعلى كل حال من الممكن جعلها مركزاً للخدمة الاجتماعية الشاملة .

وكم كنا نود لو أن وزارة المعارف خرجت عن حدودها الضيقة وشعرت أن مسؤوليتها في خدمة الشعب تتعدى تقديم بعض المعلومات التي قد تنفع وقد لا تنفع للأطفال ، كنا نود لو أنها فتحت أبواب مدارسها التي عملاً الأحياء في المدن والقرى ، فتستعمل كوحدات لخدمة الصبيان خاصة بعد الفراغ من التدريس فيها ، فهذه المدارس عملاً ودورات المياه فيها واستعدادها تصلح لخدمة أطفال الشعب لو أن وزارة المعارف شعرت أنها مسؤولة عنهم أيضاً كما أنها مسؤولة عن تلاميذها ، ولو فعلت لتخففت عبء إنشاء مثل هذه الوحدات عن كاهل الشعب والدولة في حالات كثيرة .

وعلى كل حال لا بد من الانشاء في حالات كثيرة ، ولا بد أن تراعى في الانشاء قواعد الاقتصاد كل المراعاة ، فليس الغرض بناء هياكل للفن ، وإنما الغرض إقامة نقطة بسيطة يدور حولها نشاط الصبيان في الحبي ، ويشعرون أن حياتهم مرتبطة بها كل الارتباط ، فيها ينشطون ويستمتعون بالحياة في بدء عهدها ويقيدون منها خيراً كثيراً ، وليس معنى إلحاحنا في

الاقتصاد أننا نكره أن يكون للصبيان هياكل فنية أو قصور شامخة ينعمون بالنشاط فيها ، ونود لو أن بعضها أصبح قصوراً يحج إليها الشعب ليرى كيف ينعم الأطفال في ظل عناية الشعب والحكومة ، وإنما ندعو إلى الاقتصاد حتى تكثر الوحدات وتعم الفائدة .

ومصاريف الانشاء تختلف باختلاف المدن والأحياء فهي في البنادر أقل منها في مصر والاسكندرية ، وثى في القرى لا تكاد تذكر بالنسبة إلى المدن الكبيرة ، فيتكلف البناء من خمسمائة إلى ألف جنيه في المدن وذلك من اختبارنا السالفة ، وقد يتكلف من مائة إلى مائتي جنيه في الأرياف ، ذلك تبعاً لنوع البناء ومظهره ومنافعه التي توضع على أساس ما يحتاجه الصبيان في القرى أو في المدن .

أما الميزانية السنوية التي يجب أن تتوافر لهذه الوحدات ، فهي تختلف باختلاف الجهات أيضاً ، ففي القاهرة يتكلف الصبي الواحد ما بين جنيه واحد في السنة وخمسة جنيهات تبعاً لمقدرة القائم بها مالياً ولتنوع الخدمات التي يقومون بها ، وتعدد أوجه الخدمات أم حصرها في حدود لا تتعداها ، وفي القاهرة وحدات تصرف على الصبي الواحد جنيهاً واحداً في السنة وفيها وحدات تصرف خمسة جنيهات على الصبي في السنة ، كما أن فيها وحدات تصرف ما بين هذين الرقين . يميل بعضها إلى أعلاهما وتنعدر بعضها إلى أقلهما ، كل منها تبعاً لرغبة القائم بالعمل ومقدرتهم عليه ، ونظن أن الحالة في الريف تختلف عنها في المدن تبعاً لأوجه الصرف .

والوحدات القائمة تعيش على التبرعات والهبات من الأفراد والهيئات وعلى بعض الأمانة تتلقاها من الحكومة ، ولكن لها جميعها إيراد من الصبيان أنفسهم ، ما يدفعونه اشتراكاً منهم في هذه المعاهد ، ويتراوح ما يدفعه الصبي الواحد في السنة ما بين القرشين والعشرين قرشاً ، وهو مبلغ ضئيل ، ولكنه إيراد على كل حال يجب أن يعمل حسابه عند عمل الحساب .

وهناك أيضاً الشبان الذين ربوا في هذه المعاهد ، وصرحت هي بدورها على أن تحتفظ بهم وتحسن لهم وقتاً مستقلاً عن وقت العباقار يدفعون بالمعهد فيه فإذا انتهى نشاط الصبيان في الساعة السابعة مساءً مثلاً ذهبوا إلى منازلهم وأدخلوا النادي للكبار يستعملونه من الساعة إلى العاشرة مساءً مثلاً ، وهؤلاء يدفعون قدرأ من المال قد يكفيهم للتصرف على نشاطهم دون حاجة إلى الاعانات إلا ما كان تافهاً لا يقام له وزن أو يعمل له حساب ، كمشي النور والمياه التي يستعملونها ، يتراوح ما يدفعه هؤلاء ما بين العشرين والخمسين قرشاً في السنة .

ومعنى هذا الكلام أن هذه الوحدات تصمم لخدمة الصبيان في الحالة الراهنة ، ثم توالي خدمتهم شباناً فرجالاً فكهولاً ، بحيث أن الصبي ينضم إلى إحداهما ويبقى فيها إلى ما شاء الله ، يفيد منها أنواع النشاط وينتفع بضرور الخدمات التي تصمم للأطفال وللصبي وللشاب وللرجل وللكمل ، فإذا رأى الشعب أن يعم هذا النظام الآن للصبيان في البلاد كلها يصبح أهل البلد جميعاً أعضاء في نوادي وهيئات تخدم مصالحهم وحياتهم الاجتماعية بعد عشرين سنة ، وبعبارة أخرى ينظم الشعب كله في أندية بعد عشرين أو ثلاثين سنة .

وليدكر القاري أن الإصلاح لأية أمة يبدأ دائماً أبداً بإصلاح أحوال الطفولة فيها ، فاسمنا إذاً ندعو إلى بدعة جديدة ، والشواهد في التاريخ الحديث كثيرة على هذا ، فقد تذبعت بعض الدول في وقتنا هذا الذي تهيش فيه فصرقت كل همها وعنايتها للطفولة حتى أخرجت جيلاً من الرجال نراه الآن يختلف كل الاختلاف عن آباءه أو الجيل الذي سبقه مباشرة ، ونستطيع نحن في هذا البلد ان نخرج جيلاً يختلف عنا في الميول والأمزجة وقوة النفس ومضاء العزيمة وصلاحية الأخلاق والكفاية لمواجهة الحياة ، ويفضل جيلنا من كل هذه الوجوه .

وعلى كل حال تصلح هذه الوحدات لأغراض متنوعة كما بينا ويمكن استغلالها لفائدة الشعب من وجوه كثيرة ، هذا حق ، ولكن ما يعنيننا هنا وفي هذا المقام هو تنظيم الوحدة وإعدادها ، ففي الاختبارنا واختبار سوانا نحن مارسوا هذه الخدمة بين الصبيان أن الوحدة تستطيع أن تستخدم ضمنى عدد ما تسع من الصبيان ، فإذا كانت تسع لما تبقى صبي ، يلهون فيها وينشطون ويساهمون في كل ما تفضل به في وقت واحد ، فإن هذه الوحدة بالذات يصح أن تجعل الأربعائة صبي يلهون بها ويسجلون أسمائهم فيها وينتفون لما تقدمه لهم من الخدمات المختلفة .

ذلك لأنه ويجسد بالاختبار أن أكثر الصبيان يدرجون على المساهمة في النشاط مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع فقط وذلك لطبيعة أعمالهم أو لانشغالهم بأمور العيش باقى الوقت أو لمرض أو للسفر ، وعلى كل حال وجدنا بالاختبار أن الوحدة تكفي لضفى عدد من يستطيعون النشاط فيها في أكثر أوقاتها ازدهاماً بالنشاط ، وعلى هذا يكفى الأمة أن تدبر الوحدات التي تسع نصف عدد صبياتها في وقت واحد ، وبذا تستطيع أن تكفل لكل صبي في القطر مكانة في هذه الوحدات .

نما تقدم نرى أن الوحدة التي تسع لمائتين وخمسين صبياً ينشطون فيها في وقت واحد تسع لخمائة ينتمون إليها ويفيدون منها في أوقاتهم المختلفة تحتاج إلى ما يأتي :

- ١ — أرض فضاء سعتها الف وخمسمائة إلى ألف متر مربع .
- ٢ — بناء به أربع إلى ست حجرات وعشرون دشا وخمسة مراحيض .
- ٣ — سور حول الأرض كلها بباب يجلس عنده الخادم لضبط الحياة في وقت النشاط .
- ٤ — يتكلف هذا ما بين خمسمائة والف جنيه بأثمان ما قبل الحرب . هذا بخلاف ثمن الأرض .

- ١ — يحتاج البلد الى الفى معهد.
- ٢ — يتكلف إنشائها ما يقرب من المليونين من الجنيهات .
- ٣ — يحتاج العمل إلى الفى خادم .
- ٤ — يتطلب الأمر عشرة آلاف مشرف .
- ٥ — تكون الميزانية السنوية لهذا المشروع ما يقرب من المليونين من الجنيهات .

هذا مشروع ضخم ، يستنفد جهداً ومالا كثيراً ، ويتطلب تنظيمًا بهيئ الأثر وعلى آجال طويلة ونظن أن من يقرأ هذه السطور يمر بهامس الكرام ، ولا لوم عليه في ذلك لأننا لم نعهد من أنفسنا الأقبال على المشروعات الضخمة الطويلة الآجال ، وبخاصة ما كان منها لا يمس الأعمال الاقتصادية أو العمرانية ، كبناء القناطر والجسور أو تمويل القطن أو البصل ، أو ما كان يتصل فيها بالرئى والصرف ، أما المشروعات الاجتماعية الصرفة التى تعمل على تغيير ما بنفوس الناس ، وعلى تغيير العلاقات الاجتماعية وتنظيم الجماعات ، فهذا مالا عهد لنا به فى هذا البلد ، وهذا ما يكون موضعاً للشك والتردد .

كل هذا سببى ولكن السؤال الذى يتردد فى خاطرنا الآن هو هذا : هل تبرر نتيجة العمل كل هذا الجهد والتدبير والتنظيم وبدر المال بالملايين ، لا يستطيع فرد أن يجيب على هذا السؤال ، وإذا أجاب ، فالجواب عفو الساعة ، وإنما من يجيب عليه بالاجاب أو بالرفض هو اللجان التى تدرسه من جميع نواحيه دراسة عميقة واسعة بحيث لا تغفل اعتباراً واحداً من آلاف الاعتبارات التى تدخل فى الموضوع وتؤثر فى الحكم عليه أولاً .

بعد هذه الدراسة ، وفى حالة ما إذا كان الحكم فى صالح هذا العمل للهيئات البلاد ، تدرس اللجان أن تبدأ ومتى تبدأ ، وبأى عدد من الوحدات تبدأ ، وتضع برنامجاً يحقق هذه الخدمة على عدد معين من السنين .

وتحدد أعمار الأطفال ومن أية سن تبدأ ، وإلى أية سن يبقى الصبي بين
 الصبيان ، وفي أية سن ينقل إلى قسم الشباب ، وكيف توفق بين أوقات
 الجميع ، وكيف تنزع العمل وتدير الأمور بحيث أن الصبي الذي ينضم لخدمة
 ما يجد مكاناً له بشكل من الأشكال في نظام الأندية الشعبية ، وكل
 هذه دراسات تستغرق وقتاً طويلاً وجهوداً مضمينة وتتطلب سياسة معينة
 للتربية الشعبية توضع وتنفذ بغض النظر عن التقلبات السياسية في البلاد
 وبغض النظر عن يتولى الحكم من الأحزاب ومن منهم في المعارضة ،
 وبغض النظر عما إذا كان البرلمان منقاداً أو منفصلاً ، وأنى لنا عمل هذه
 السياسة في تربية الشعب التي لا تتأثر بالتقلبات الحزبية في البلاد .
 وإذا وضعت سياسة تربية للشعب في حياته القادمة أو للجيل الناشئ
 نظن أنها يجب أن توضع على أساس ما يأتي دون سواه .

١ — خدمة الشعب أخلاقياً وصحياً واجتماعياً واقتصادياً

٢ — تربية أفراد الشعب على الولاء للشعب وللجماعة المصرية وللجاعات
 التي تتكون منها الأمة .

ولا يتم شيء من هذا إذا وجد المال ووجدت الوحدات وعزمت
 الحكومة والأمة على الاضطلاع بالمشروع إلا في حالة توافر الشبان الذين
 يستطيعون أن يتحملوا بأطفال الشعب ويبتشوا فيهم كل هذه الفضائل التي
 ذكرنا ، ويؤدوا لهم كل هذه للخدمات ، هؤلاء هم حجر الزاوية في البناء
 كله ، والواقع أن القائمين بمثل هذه المشروعات في القاهرة يلقون العناية كل
 العناية في اكتشاف المشرفين الذين يمكنهم أن يؤدوا هذه الخدمة للأطفال .
 ذلك لأنه ليس كل شاب حسن الخلق رضي النفس يصلح لمثل هذا العمل ،
 وإنما يجب أن يكون كما وصفنا ، ثم يجب أن يصرف ثلاث أو أربع سنين
 في دراسة مستمرة تنظم في بعض المدارس لهذه الغرض بالذات ، ثم يجب
 أن يمارسوا العمل بعد هذه الدراسة حتى يكتشفوا ما إذا كان هذا العمل
 متفقاً وأمنجتهم واستعدادهم الفطري أم لا .

وعلى ذلك يخيل إلينا أنه في حالة قبول مثل هذا المشروع يجب أن يوسع ميدان الدراسة في مدارس الخدمة الاجتماعية الموجودة الآن بحيث تخرج لنا طائفة كبيرة من هؤلاء . ثم يخيل إلينا أنه يحسن بالجامعة المصرية وعمهد التربية أن يضمها مناهج الخدمة الاجتماعية ويدخلها في برامجها ، ويوجد لها أقساماً خاصة بها ، ويكون طلبة هذه الأقسام من الموظفين الحاليين الذين يريدون أن يتسع عليهم باب الكسب ، وفي نفس الوقت يؤدون خدمة للبلاد .

في هذه الحالة تكون الدراسة ليلاً حتى يستطيع آلاف الموظفين الشباب المساهمة فيها ، فهي من جهة ثقافة عامة تفضل بكثير إضاعة الوقت فيما لا يجدي أو فيما يضر بهم وبحياتهم ، ثم هي في نفس الوقت خدمة عامة وضرورية في عنق القادرين عليها ، وبعد فهي باب للكسب يرغب الكثيرون منهم ولوجه التحسين مهيئتهم ، ولا لوم عليهم في هذا ، بل يهابون عليه ويدخلون به في عداد المواطنين النافعين . ولا يخفى أننا ندعو إلى هذا حتى لا يضطر الشعب والدولة إلى توظيف عدد كبير من الموظفين الدائمين لهذا العمل ، ففضلاً عن أن في هذا من الأعباء المالية ما تنوء بحمله البلاد فانه مضيعة للجهود ، فالصبيان في المدارس أو المصانع طيلة اليوم ، وهم يفرغون من هذه ونالك من بعد الظهر ، فلا نظن أن هنالك ضرورة لاستخدام موظفين مستديمين يقطنون طيلة اليوم في هذه المعاهد دون عمل يقومون به .

لكل هذه الأسباب يخيل إلينا أننا نستطيع أن نستغل أوقات فراغ هؤلاء الشبان فتفيد البلاد وينفدون .